محمود درويش

أعراس

الطبعة الخامسة

دار العودة - بيروت



محمود درويش



أعراس

١٩٧٧

دار العودة - بيروت

١٩٩٣/١٠/١

الطبعة الخامسة

يطلب من دار العودة ـ بيروت
كورنيش المزرعة ـ بناية ريفييرا سنتر
تلفون: ٣١٨١٦٥ ـ ٨١٥٣٣٥
ص. ب: ١٤٦٢٨٤ / برقياً: العودة

أعراس

عاشقٌ يأتي من الحرب إلى يوم الزفافْ
يرتدي بدلَتَهُ الأولى
ويدخلْ
حلبة الرقص حصاناً
من حماس وقرنفلْ

وعلى حبل الزغاريد يُلاقي فاطمهْ
وتُغنّي لهما
كل أشجار المنافي
ومناديل الحداد الناعمهْ

ذَبَّلَ العاشقُ عينيه

وأعطى يَدَهُ السمراء للحنّاء
والقطن النسائيّ المقدس

وعلى سقف الزغاريد تجيء الطائرات
طائرات
طائرات
تخطفُ العاشقَ من حضن الفراشهْ
ومناديل الحداد
وتُغنّي الفتيات :
قد تزوَّجْتَ
تزوجت جميع الفتيات
يا محمَّدْ !
وقضيتَ الليلة الأولى
على قرميد حيفا
يا محمد !
يا أمير العاشقين
يا محمد !
وتزوَّجتَ الدوالي
وسياج الياسمين

يا محمد !

وتزوَّجتَ السلالمْ

يا محمد !

وتقاوم

يا محمد !

وتزوَّجْتَ البلاد

يا محمد !

يا محمد !

كان ما سوف يكون

إلى راشد حسين



في الشارع الخامس حيّاني. بكى. مال على السور
الزجاجي، ولا صفصاف في نيويورك.
أبكاني. أعاد الماءَ للنهر. شربنا قهوة. ثم افترقنا في
الثواني.

منذ عشرين سنهْ
وأنا أعرفه في الأربعينْ
وطويلاً كنشيدٍ ساحليٍّ، وحزينْ
كان يأتينا كسيف من نبيذٍ. كان يمضي كنهايات
صلاهْ
كان يرمي شِعْرَهُ في مطعم «خريسْتو»
وعكا كلها تصحو من النومِ

وتمشي في المياه
كان أُسبوعاً من الأرض، ويوماً للغزاهْ
ولأمي أن تقول الآن : آه !

ليديه الوردُ والقيدُ. ولم يجرحْهُ خلفَ السور إلّا
جرحُهُ السيِّدُ. عُشّاقٌ يجيئون ويرمون المواعيدَ.
رفعنا الساحل الممتدَّ. دشَّنا العناقيدَ. اختلطنا في
صراخ الفيجن البريِّ. كسرنا الأناشيدَ. انكسرنا
في العيون السود. قاتلنا. قُتلنا. ثم قاتلنا. وفرسان
يجيئون ويمضونَ.

وفي كل فراغْ
سنرى صمت المغني أزرقاً حتى الغيابْ
منذ عشرين سنهْ
وهو يرمي لحمه للطير والأسماك في كل إتجاه
ولأمي أن تقول الآن : آه !

إبنُ فَلاّحَيْنِ من ضلع فلسطينَ
جنوبيٌّ

شقيٌّ مثل دوريٍّ
قويّ
فاتحُ الصوتِ
كبير القدمين
واسعُ الكفِّ. فقيرٌ كفراشهْ
أسمرٌ حتى التداعي
وعريض المنكبين
ويرى أبعدَ من بوابة السجن
يرى أقرب من أطروحة الفن
يرى الغيمة في خوذة جنديّ
يرانا، ويرى كرت الإعاشهْ
وبسيطٌ.. في المقاهي واللغهْ
ويحب الناي والبيرةَ
لم يأخذ من الألفاظ إلاّ أبسط الألفاظ
سهلاً كان كالماء.
بسيطاً... كعشاء الفقراء.

كان حقلاً من بطاطا وذرهْ
لا يحب المدرسهْ

ويحب النثر والشعر
لعل السهل نثرٌ
ولعل القمح شعرٌ.
ويزورُ الأهلَ يوم السبتِ
يرتاح من الحبر الإلهي
ومن أسئلة البوليسِ .
لم ينشر سوى جزئين من أشعاره الأولى
وأعطانا البقيةْ
شوهدت خطوتُهُ فوقَ مطار اللد من عشر سنين
واختفى . . .

كان ما سوف يكونُ
فضحتني السنبلةْ
ثم أهدتني السنونو
لعيون القَتَلَةْ

. . شاحباً كالشمس في نيويورك :
من أين يمرُّ القلبُ ؟ هل في غابة الإسمنت ريش لحمام ؟
وبريدي فارغٌ . والفجر لا يَلْسَعُ .

والنجمةُ لا تلمع في هذا الزحام.

ومسائي ضيِّقٌ. جسم حبيبي ورقٌ. لا أحد حول
مسائي «يتمنى أن يكون النهرَ والغيمةَ».. من
أين يمر القلب؟ مَنْ يلتقط الحلم الذي يسقط قرب
الأوبرا والبنك؟ شلاّلُ دبابيسَ سيجتاح الملذاتِ
التي أحملها.

لا أحلم الآن بشيء
أشتهي أن أشتهي
لا أحلم الآن بغير الانسجام
أشتهي
أو
أنتهي
لا. ليس هذا زمني

شاحباً كالشمس في نيويوركَ
أعطيني ذراعي لأعانقْ
ورياحي لأسير.

ومن المقهى إلى المقهى: أُريد اللغة الأخرى
أُريد الفرق بين النّار والذكرى
أُريد الصفَةَ الأولى لأعضائي
وأعطيني ذراعي لأعانق
ورياحي لأسير

ومن المقهى إلى المقهى
لماذا يهرب الشعر من القلب إذا ما ابتعدتْ يافا ؟ لماذا
تختفي يافا إذا عانقتُها ؟
لا ليس هذا زمني.

وأُريد الصفة الأولى لأعضائي
وأعطيني ذراعي لأعانق
ورياحي لأسير

. . . واختفى في الشارع الخامس، أو بوابة القطب الشماليِّ. ولا أذكر من عينيه إلاّ مدناً تأتي وتمضي. وتلاشى، وتلاشى . . .

والتقينا بعد عام في مطار القاهرة
قال لي بعد ثلاثين دقيقة :

«ليتني كنت طليقاً
في سجون الناصرة»

نام أسبوعاً. صحا يومين. لم يذهب مع النيل إلى الأرياف
لم يشرب من القهوة إلّا لونها.
لم يرَ المصريَّ في مصرَ
ولم يسأل سوى الكُتّاب عن شكل الصراع الطبقيّ
ثم ناداه السؤال الأبديّ الاغتراب الحجريّ
قلت : من أيِّ نبيٍّ كافرٍ قد جاءكَ البعدُ النهائيّ ؟

بكى من كَسَل في نظراتي. هل تغيَّرْتَ ؟
تغيَّرتُ. ولم تذهب حياتي
عبثاً.
مال إلى النيل وقال : النيل ينسى ؟
قلت : لا ينسى كما كنا نظنُّ
وتذكَّرنا معاً إيقاعنا الماضي
وموجاتِ السنونو فوق كفٍّ تقرع الحائطَ
والأرضَ التي نحملها في دمنا كالحشرات
وتذكرنا معاً إيقاعنا الماضي وموتَ الأصدقاءْ

والذين اقتسموا أيامنا، وانتشروا
لم يحبونا كما كُنّا نشاء
لم يحبونا ولكن عرفونا . .

كان يهذي عندما يصحو. ويصحو عندما يبكي
ويمشي كنخيامٍ في البعيد العربيّ
ذهب العمر هباء
وفقدتُ الجوهريّ
واختفى قرب غروب النيل
أعددتُ له مرثية أخرى وجنّاز تخيلْ

يا انتحاري المتواصلْ
أوقف العمر لكي نبدأ من أي رحيلْ
وتأجّجْ كنباتات الجليل
وتوهّجْ كقتيل

يا انتحاري المتواصل
قف على ناصية الحلم وقاتلْ
فَلَكَ الأجراسُ ما زالت تدقُّ
ولك الساعة ما زالت تدقُّ

وتلاشى مرة أخرى
وخانتني الغصونُ
كان ما سوف يكونُ
فضحتني السنبلهْ
ثم أهدتني السنونو
لسيوفِ القتلهْ

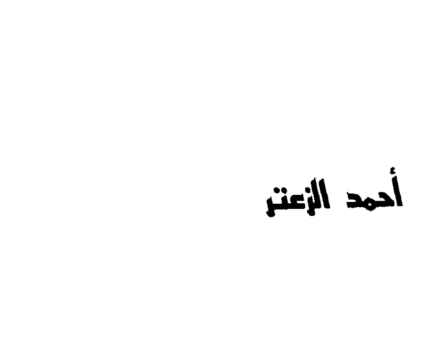
كانت نيويورك في تابوتها الرسمي تدعونا إلى تابوتها. في الشارع الخامس حيّاني. بكى. مال على نافورة الإسمنتِ. لا صفصاف في نيويورك. أبكاني. أعاد الظل للبيت. اختبأنا في الصدى. هل مات منا أحدٌ ؟ كلاّ. تغيَّرتَ قليلاً ؟ لا. هل الرحلة ما زالت هي الرحلة والميناءُ في القلب ؟. نعم.
كان بعيداً وبعيداً ونهائيٍّ الغيابْ
دَخَّنَ الكأسَ. .
تلاشى
كغزالٍ يتلاشى
في مروج تتلاشى في الضبابْ
ورمى سيجارة في كبدي وارتاحَ

لم ينظر إلى الساعةِ
لم يسرقْهُ هذا القَمَرُ الواقفُ تحت الطابق العاشر في
منهاتنَ. التفَّ بذكراهُ. . تغشّاه رنينُ الجرس
السريّ. مَرَّتْ بين كفينا عصافيرُ عصافيرُ وموتٌ
عائليّ. ليس هذا زمني. عاد شتاءٌ آخر. ماتتْ
نساءُ الخيل في حقل بعيد. قال إنَّ الوقت لا يخرج
مني. فتبادلتُ وقلبي مُدُناً تنهار من أوَّل هذا
العمر حتى آخر الحلمِ. . .
أنبقى هكذا نمضي إلى الخارجِ في هذا النهار البرتقالي
فلا نلمس إلاّ الداخلَ الغامضَ ؟
من أين أتيتَ ؟
إخترقتْ عصفورةٌ رمحاً
فقلتُ اكتشفتْ قلبي
أنبقى هكذا نمضي إلى الداخل في هذا النهار البرتقاليّ
فلا نلمس إلاّ شرطة الميناء ؟

يهذي خارج الذكرى : أنا الحامل عبءَ الأرض،
والمنقذ من هذا الضلال. الفتياتُ انتعلتْ روحي
وسارت. والعصافيرُ بَنَتْ عُشّاً على صوتي وشَقَّتني

وطارت في المدى . .
لم يتغيَّرْ أيُّ شيء
والأغاني شردتني شردتني
ليس هذا زمني .
لا ، ليس هذا وطني .
لا ليس هذا بدني .

كان ما سوف يكونُ
فضحته السنبلهْ
ثم أهدته السنونو
لرياح القتلهْ . .



أحمد الزعتر

ليدين من حَجَر وزعترْ
هذا النشيدُ . . لأحمدَ المنسيِّ بين فراشتين
مَضَتِ الغيومُ وشرَّدتني
ورمتْ معاطِفها الجبالُ وخبأتني

. . نازلاً من نحلة الجرح القديم إلى تفاصيل
البلاد وكانت السنةُ انفصال البحر عن مدن
الرماد وكنتُ وحدي
ثم وحدي . . .
آه يا وحدي ؟ وأحمدْ
كان اغترابَ البحر بين رصاصتين
مُخيّماً ينمو، ويُنجب زعتراً ومقاتلين

وساعداً يشتدُّ في النسيان
ذاكرةً تجيء من القطارات التي تمضي
وأرصفةً بلا مستقبلين وياسمين
كان اكتشافَ الذات في العرباتِ
أو في المشهد البحريِّ
في ليل الزنازين الشقيقةِ
في العلاقات السريعة
والسؤال عن الحقيقهْ
في كلِّ شيء كان أحمدُ يلتقي بنقيضهِ
عشرين عاماً كان يسألْ
عشرين عاماً كان يرحلْ
عشرين عاماً لم تلده أُمُّهُ إلاّ دقائقَ في
إناء الموز
وانسَحَبَتْ.
يريد هويةً فيصاب بالبركانِ،
سافرتِ الغيومُ وشرَّدتني
ورَمَتْ معاطفها الجبالُ وخبَّأتني

أنا أحمد العربيُّ ـ قالَ

أنا الرصاصُ البرتقالُ الذكرياتُ
وجدتُ نفسي قرب نفسي
فابتعدتُ عن الندى والمشهد البحريّ
تل الزعتر الخيمةْ
وأنا البلاد وقد أتَتْ
وتقمَّصتني
وأنا الذهاب المستمر إلى البلاد
وجدتُ نفسي ملء نفسي . . .

راح أحمدُ يلتقي بضلوعه ويديه
كان الخطوةَ ـ النجمةْ
ومن المحيط إلى الخليج، من الخليج إلى المحيط
كانوا يُعدّون الرماحَ
وأحمدُ العربيُّ يصعد كي يرى حيفا
ويقفزَ .
أحمدُ الآن الرهينةْ
تركتْ شوارعَها المدينةْ
وأتتْ إليه
لتقتلهْ

ومن الخليج إلى المحيط، من المحيط إلى الخليج
كانوا يُعدُّون الجنازةَ
وانتخاب المقصلةْ

أنا أحمدُ العربيُّ ـ فليأتِ الحصارْ
جسدي هو الأسوار ـ فليأت الحصار
وأنا حدود النار ـ فليأت الحصار
وأنا أحاصركم
أحاصركم
وصدري بابُ كلِّ الناس ـ فليأت الحصار

لم تأتِ أغنيتي لترسم أحمدَ الكحليَّ في الخندقْ
الذكرياتُ وراء ظهري، وهو يوم الشمس والزنبق
يا أيها الولد الموزَّعُ بين نافذتين
لا تتبادلان رسائلي
قاومْ
إنَّ التشابه للرمال. . . وأنتَ للأزرقْ

وأعُدُّ أضلاعي فيهرب من يدي بردى
وتتركني ضفاف النيل مبتعدا
وأبحثُ عن حدود أصابعي

فأرى العواصمَ كلّها زَبَدَا . . .

وأحمدُ يفرُكُ الساعاتِ في الخندقْ
لم تأتِ أُغنيتي لترسم أحمد المحروق بالأزرق
هو أحمد الكَوْنيُّ في هذا الصفيح الضيِّقِ
المتمزِّق الحالمْ
وهو الرصاص البرتقاليُّ . . البنفسَجَةُ الرصاصيَّهْ
وهو اندلاعُ ظهيرة حاسمْ
في يوم حريَّهْ

يا أيها الولد المكرّس للندى
قاوِمْ !
يا أيها البلد ـ المسدَّس في دمي
قاوِمْ !
الآن أكمل فيك أُغنيتي
وأذهبُ في حصاركْ
والآن أكمل فيك أسئلتي
وأولد من غبارك
فاذهب إلى قلبي تجد شعبي

شعوباً في انفجارك

. . . سائراً بين التفاصيل اتكأتُ على مياهٍ
فانكسرتُ
أكلّما نَهَدَتْ سفرجلةٌ نسيتُ حدود قلبي
والتجأتُ إلى حصارٍ كي أحدِّد قامتي
يا أحمد العربيَّ ؟
لم يكذب عليَّ الحب. لكن كُلّما جاء المساء
امتصَّني جَرَسٌ بعيدٌ
والتجأتُ إلى نزيفي كي أُحدِّد صورتي
يا أحمد العربيُّ .
لم أغسل دمي من خبز أعدائي
ولكن كُلّما مرَّت خُطَايَ على طريقٍ
فرَّتِ الطرقُ البعيدةُ والقريبةُ
كلّما آخيتُ عاصمةً رمَتني بالحقيبةِ
فالتجأتُ إلى رصيف الحلم والأشعار
كم أمشي إلى حُلُمي فتسبقني الخناجرُ
آه من حلمي ومن روما !
جميلٌ أنت في المنفى

قتيلٌ أنت في روما
وحيفا من هنا بدأتْ
وأحمدُ سُلَّمُ الكرملْ
وبسملة الندى والزعتر البلدي والمنزلْ

لا تسرقوه من السنونو
لا تأخذوه من الندى
كتبت مراثيها العيونُ
وتركت قلبي للصدى

لا تسرقوه من الأبدْ
وتبعثروه على الصليب
فهو الخريطةُ والجسد
وهو اشتعال العندليب

لا تأخذوه من الحَمَامْ
لا ترسلوهُ إلى الوظيفهْ
لا ترسموا دمه وسام
فهو البنفسج في قذيفهْ

صاعداً نحو التئام الحلم

تَتَّخذُ التفاصيلُ الرديئةُ شكلَ كُمَّثرى
وتنفصلُ البلادُ عن المكاتبِ
والخيولُ عن الحقائبِ
للحصى عرقٌ أقبِّلُ صمتَ هذا الملح
أعطي خطبة الليمون لليمون
أوقدُ شمعتي من جرحيَ المفتوحِ للأزهار
والسمكِ المجفَّف
للحصى عَرَقٌ ومرآةٌ
وللحطّاب قلبُ يمامةٍ
أنساكِ أحياناً لينساني رجالُ الأمنِ
يا امرأتي الجميلةَ تقطعين القلب والبَصَل
الطريَّ وتذهبين إلى البنفسج
فاذكريني قبل أن أنسى يديَّ

.. وصاعداً نحو التئام الحلمِ
تنكمش المقاعدُ تحت أشجاري وظلّكِ...
يختفي المتسلّقون على جراحك كالذباب الموسميّ
ويختفي المتفرجون على جراحك
فاذكريني قبل أن أنسى يديَّ !

وللفراشات اجتهادي

والصخورُ رسائلي في الأرض

لا طروادة بيتي

ولا مسّادةٌ وقتي

وأصعد من جفاف الخبز والماء المصادَرِ

من حصان ضاع في درب المطارِ

ومن هواء البحر أصعدُ

من شظايا أدْمَنَتْ جسدي

وأصعدُ من عيون القادمين إلى غروب السهلِ

أصعدُ من صناديق الخضارِ

وقوَّة الأشياء أصعدُ

أنتمي لسمائي الأولى وللفقراء في كل الأزقَّة

ينشدون :

صامدون

وصامَدون

وصامدون

كان المخيَّمُ جسمَ أحمدْ

كانت دمشقُ جفونَ أحمدْ

كان الحجاز ظلال أحمدْ
صار الحصارُ مُرورَ أحمدَ فوق أفئدة الملايين
الأسيرهْ
صار الحصارُ هُجُومَ أحمدْ
والبحر طلقته الأخيرهْ !

يا خَصْرَ كلِّ الريح
يا أسبوع سُكَّرْ !
يا اسم العيون ويا رُخاميّ الصدى
يا أحمد المولود من حجر وزعترْ
ستقول : لا
ستقول : لا
جلدي عباءةُ كلِّ فلاح سيأتي من حقول التبغ
كي يلغي العواصمْ
وتقول : لا
جسدي بيان القادمين من الصناعات الخفيفةِ
والتردد . . والملاحمْ
نحو اقتحام المرحلهْ
وتقول : لا

ويدي تحياتُ الزهور وقنبلهْ
مرفوعة كالواجب اليومي ضدَّ المرحلهْ
وتقول : لا
يا أيها الجسد المُضرَّج بالسفوحِ
وبالشموس المقبلهْ
وتقول : لا
يا أيها الجسد الذي يتزوج الأمواج
فوق المقصلهْ
وتقول : لا
وتقول : لا
وتقول : لا !

وتموت قرب دمي وتحيا في الطحين
ونزور صمتك حين تطلبنا يداكَ
وحين تشعلنا اليراعهْ
مشت الخيولُ على العصافير الصغيرةِ
فابتكرنا الياسمين
ليغيب وجهُ الموت عن كلماتنا
فاذهب بعيداً في الغمام وفي الزراعهْ

لا وقتَ للمنفى وأُغنيتي . . . :
سيجرفُنا زحامُ الموت فاذهب في الزحام
لنُصاب بالوطن البسيط وباحتمال الياسمين

واذهبْ إلى دمك المهيَّأ لانتشارك
واذهب إلى دميَ الموحَّدِ في حصارِك
لا وقتَ للمنفى . . .
وللصُوَرِ الجميلةِ فوق جدران الشوارع والجنائز
والتمني
كتبتْ مراثيها الطيورُ وشرَّدتني
ورمتْ معاطفها الحقولُ وجمعتني
فاذهبْ بعيداً في دمي ! واذهب بعيداً في الطحين
لنُصاب بالوطن البسيط وباحتمال الياسمين

يا أحمدُ اليوميّ !
يا اسم الباحثين عن الندى وبساطة الأسماء
يا اسم البرتقالهْ
يا أحمد العاديّ !
كيف مَحَوْتَ هذا الفارقَ اللفظيَّ بين الصخر والتفّاح

بين البندقية والغزالهْ !

لا وقت للمنفى وأغنيتي . .
سنذهب في الحصار
حتى نهايات العواصم
فاذهبْ عميقاً في دمي
اذهبْ براعمْ
واذهبْ عميقاً في دمي
اذهبْ خواتم
واذهبْ عميقاً في دمي
اذهب سلالم

يا أحمدُ العربيُّ . . قاومْ !
لا وقت للمنفى وأغنيتي . .
سنذهب في الحصار
حتى رصيف الخبز والأمواجِ
تلك مساحتي ومساحة الوطن ـ المُلازِمْ
موتٌ أمام الحُلْمِ
أو حلم يموتُ على الشعار
فاذهب عميقاً في دمي واذهب عميقاً في الطحين

لنُصاب بالوطن البسيط وباحتمال الياسمين

. . . ولَهُ انحناءاتُ الخريف
لَهُ وصايا البرتقال
لَهُ القصائد في النزيف
لَهُ تجاعيدُ الجبال
لَهُ الهتافُ
لَهُ الزفافُ
لَهُ المجلاّتُ المُلوَّنةُ
المراثي المطمئنةُ
ملصقات الحائط
العَلَمُ
التقدُّمُ
فرقةُ الإنشاد
مرسوم الحداد
وكل شيء كل شيء كل شيء
حين يعلن وجهه للذاهبين إلى ملامح وجههِ
يا أحمدُ المجهولُ !
كيف سَكَنْتَنا عشرين عاماً واختفيتَ

وظَلَّ وجهُكَ غامضاً مثل الظهيرهْ
يا أحمد السريّ مثل النار والغابات
أشهرْ وجهك الشعبيَّ فينا
واقرأ وصيَّتكَ الأخيرهْ ؟
يا أيها المتفرّجون ! تناثروا في الصمت
وابتعدوا قليلاً عنه كي تجدوهُ فيكم
حنطةً ويدين عاريتين
وابتعدوا قليلاً عنه كي يتلو وصيَّتَهُ
على الموتى إذا ماتوا
وكي يرمي ملامحَهُ
على الأحياء ان عاشوا !

أخي أحمد !
وأنتَ العبدُ والمعبود والمعبد
متى تشهدْ
متى تشهدْ
متى تشهدْ ؟

قصيدة الرمل

إِنَّهُ الرملُ

مساحاتٌ من الأفكار والمرأةِ،

فلنذهب مع الإيقاع حتى حتفنا

في البدء كان الشجر العالي نساء

كان ماء صاعداً، كان لغة.

هل تموت الأرض كالإنسان

هل يحملها الطائر شكلاً للفراغ ؟

البداياتُ أنا

والنهاياتُ أنا

والرمل شكل واحتمال.

برتقال يتناسى شهوتي الأولى.

أرى في ما أرى النسيانَ، قد يفترسُ الأزهارَ والدهشةَ،
والرملُ هو الرملُ. أرى عصراً من الرمل يغطينا،
ويرمينا من الأيام.
ضاعت فكرتي وامرأتي ضاعتْ
وضاع الرمل في الرملِ..

البداياتُ أنا
والنهاياتُ أنا

والرمل جسم الشجر الآتي،
غيومٌ تشبه البلدانَ.
لونٌ واحدٌ للبحر والنومِ.
وللعشاق وجهٌ واحدٌ،
... وسنعتاد على القرآن في تفسير ما يجري،
سنرمي ألفَ نهرٍ في مجاري الماء.
والماضي هو الماضي، سيأتي في انتخابات المرايا
سيِّدَ الأيّامِ.
والنخلةُ أمُّ اللغة الفصحى.
أرى، في ما أرى، مملكة الرمل على الرمل

ولن يبتسم القتلى لأعياد الطبولْ

ووداعاً . . . للمسافات

وداعاً . . . للمساحات

وداعاً للمغنين الذين استبدلوا «القانون» بالقانون كي

يلتحموا بالرمل . . .

مرحى للمصابين برؤيايَ، ومرحى للنسيولْ.

البداياتُ أنا

والنهاياتُ أنا

أمشي إلى حائط إعدامي كعصفورٍ غبيٍّ،

وأظن السهمَ ضلعي

ودمي أغنيةَ الرمّان. أمشي

وأغيب الآن في عاصفة الرمل،

سيأتي الرمل رملياً

وتأتين إلى الشاعر في الليل، فلا

تجدين الباب والأزرق،

ضاعت لفظتي وامرأتي ضاعتْ . .

سيأتي . . . سوف يأتي عاشقان
يأخذان الزنبق الهارب من أيامنا
ويقولان أمام النهر :
كم كان قصيراً زمنُ الرمل
ولا يفترقان

والبداياتُ أنا
والنهاياتُ أنا

قصيدة الخبز

(إلى إبراهيم مرزوق)

كان يوماً غامضاً. . .
تخرجُ الشمسُ إلى عاداتها كسلى
رمادٌ مَعْدنيٌّ يملأ الشرقَ. . .
وكان الماءُ في أوردة الغيمِ
وفي كل أنابيب البيوتْ
يابساً
كان خريفاً يائسا في عمر بيروتَ
وكان الموتُ يمتدُّ من القصرِ
إلى الراديو إلى بائعة الجنس إلى سوق الخضار
ما الذي أيقظك الآن
تمام الخامسةْ ؟

كان إبراهيمُ رسّامَ المياه
وسياجاً للحروب
وكسولاً عندما يوقظُهُ الفجرُ
ولكنَّ لإبراهيمَ أطفالاً من الليْلَكِ والشمسِ
يريدون رغيفاً وحليب
كان إبراهيمُ رسّاماً وأب
كان حيّاً من دجاج وجنوب وغضب
وبسيطاً كصليب

المساحاتُ صغيرهْ
مقعدٌ في غرفة. لا شيء... لا شيء
وكان الرسمُ بالماء وطنْ
والتفاصيلُ لكمْ. وجهي أنا برقيَّةٌ
هل تقرأون الماءَ كي نتَّفق الآن ؟
البياضُ الأسودُ احتلَّ المسافات
أنا الورد الذي لا يومىءُ
القيدُ الذي يأتي من الحرية ـ الفوضى
أو العجز الذي يأخذ شكل الوطن ـ البوليس
هل كان الوطنْ

انطباعاً أم صراعاً ؟
وضياعاً أم خلاصْ
كان يوماً غامضاً. .
وجهي أنا برقيَّةُ الحنطة في حقل الرصاص

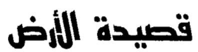
ما الذي أيقظك الآن
تمام الخامسهْ ؟
كنتَ تعرفْ
هي بيروت الفوارقْ
هي بيروت الحرائقْ
ما الذي أيقظك الآن
تمام الخامسهْ ؟
إنهم يغتصبون الخبز والإنسان
منذ الخامسهْ. !. .

لم يكن للخبز في يوم من الأيّامِ
هذا الطعمُ، هذا الدمُ
هذا الملمسُ الهامسُ
هذا الهاجسُ الكونيُّ
هذا الجوهرُ الكليُّ

هذا الصوتُ هذا الوقتُ
هذا اللونُ هذا الفنُّ
هذا الاندفاعُ البشريُّ. السرُّ. هذا السِّحرُ
هذا الانتقالُ الفذُّ
من كهف البدايات إلى حرب العصابات
إلى المأساة في بيروت
من كان يموت
في تمام الخامسهْ ؟

كان إبراهيم يستولي على اللون النهائيّ
ويستولي على سرِّ العناصرْ
كان رسّاماً وثائر
كان يرسمْ
وطناً مزدحماً بالناس والصفصاف والحرب
وموج البحر والعمال والباعة والريف
ويرسمْ
جسداً مزدحماً بالوطن المطحون
في معجزة الخبزِ
ويرسمْ

مهرجان الأرض والإنسان،
خبزاً ساخناً عند الصباح
كانت الأرض رغيفاً
كانت الشمس غزالهْ
كان إبراهيم شعباً في رغيف
وهو الآن نهائيٌّ... نهائيٌّ
تمام السادسهْ
دَمُهُ في خبزه
خبزُهُ في دمه
الآن
تمام السادسهْ!..


قصيدة الأرض

- ١ -

في شهر آذارَ، في سَنَة الانتفاضةِ، قالتْ لنا الأرض

أسرارَها الدمويَّةَ. في شهر آذارَ مَرَّتْ أمام

البنفسج والبندقية خمسُ بناتٍ. وقَفْنَ على باب

مدرسة ابتدائيَّةٍ، واشتعلن مع الورد والزعترِ

البلديِّ. افتتحنَ نشيدَ التراب. دخلن العناقَ

النهائيَّ ـ آذارُ يأتي إلى الأرض من باطن الأرض

يأتي، ومن رقصة الفتياتِ ـ البنفسجُ مال قليلاً

ليعبر صوتُ البنات. العصافيرُ مَدَّتْ مناقيرها

في اتجاه النشيد وقلبي.

أنا الأرضُ

والأرضُ أنتِ
خديجةُ ! لا تغلقي الباب
لا تدخلي في الغياب
سنطردهم من إناء الزهور وحبل الغسيل
سنطردهم عن حجارة هذا الطريق الطويل
سنطردهم من هواء الجليل.
وفي شهر آذار، مَرَّتْ أمام البنفسج والبندقية خمسُ
بنات. سقطن على باب مدرسة ابتدائيَّةٍ. للطباشير
فوق الأصابع لونُ العصافير. في شهر آذار قالت
لنا الأرض أسرارها.

- 1 -

أُسمّي التراب امتداداً لروحي
أُسمّي يديَّ رصيفَ الجروحِ
أُسمّي الحصى أجنحةْ
أُسمّي العصافير لوزاً وتين
أُسمّي ضلوعي شجرْ
وأستلُّ من تينة الصدر غصناً
وأقذفه كالحجرْ

وأنسف دبّابة الفاتحين.

- ٢ -

وفي شهر آذار، قبل ثلاثين عاماً وخمس حروب،
وُلدتُ على كومة من حشيش القبور المضيء.
أبي كان في قبضة الانجليز. وأُمّي تربّي جديلتها
وامتدادي على العشبِ. كنتُ أُحبُّ «جراح
الحبيب» وأجمعها في جيوبي، فتذبل عند الظهيرة،
مَرَّ الرصاصُ على قمري الليلكيِّ فلم ينكسرْ
غير أن الزمان يَمرُّ على قَمَري الليلكيِّ فيسقط في
القلب سهواً...
وفي شهر آذار نمتدُّ في الأرضِ
في شهر آذار تنتشر الأرضُ فينا
مواعيدَ غامضةً
واحتفالاً بسيطاً
ونكتشف البحرَ تحت النوافذِ
والقمرَ الليلكيَّ على السرو
في شهر آذار ندخل أول سجن وندخل أول حُبٍّ،
وتنهمرُ الذكرياتُ على قرية في السياج
وُلدنا هناك ولم نتجاوز ظلال السفرجلِ

كيف تفرّين من سُبُلي يا ظلال السفرجل ؟
في شهر آذار ندخل أول حُبّ
وندخل أول سجن
وتنبلج الذكرياتُ عشاء من اللغة العربية
قال ليَ الحبُّ يوماً : دخلتُ إلى الحلم وحدي فضعتُ
وضاعَ بيَ الحلمُ. قلتُ : تكاثر ! تَرَ النهر يمشي
إليك.
وفي شهر آذار تكتشف الأرض أنهارها

- 2 -

بلادي البعيدةَ عني... كقلبي !
بلادي القريبةَ مني... كسجني !
لماذا أُغنّي
مكاناً، ووجهي مكانْ ؟
لماذا أُغني
لطفلٍ ينامُ على الزعفران
وفي طرف النوم خنجر
وأُمّي تناولني
صدرها

وتموتُ أمامي

بنسمة عنبر ؟

- ٣ -

وفي شهر آذار تستيقظ الخيلُ

سيدتي الأرضَ !

أيُّ نشيد سيمشي على بطنكِ المتموِّج، بعدي ؟

وأيُّ نشيد يلائمُ هذا الندى والبَخُورَ

كأنَّ الهياكل تستفسر الآن عن أنبياء فلسطينَ في بدئها

المتواصل

هذا اخضرارُ المدى واحمرارُ الحجارةِ -

هذا نشيدي

وهذا خروجُ المسيح من الجرح والريح

أخضرَ مثل النبات يُغطّي مساميرَهُ وقيودي

وهذا نشيدي

وهذا صعود الفتى العربيِّ إلى الحلم والقدس. . .

في شهر آذار تستيقظ الخيلُ.

سيدتي الأرضَ !

والقممُ اللولبيَّةُ تبسطها الخيلُ سجّادةً للصلاة السريعة
بين الرماح وبين دمي .
نصفَ دائرة ترجع الخيلُ قوسا
ويلمع وجهي ووجهك حيفا وعُرسا

وفي شهر آذار ينخفض البحرُ عن أرضنا المستطيلة مثل
حصان على وترِ الجنسِ .
في شهر آذار ينتفض الجنسُ في شجر الساحل العربيّ .
وللموج أن يحبس الموجَ . . أن يتموَّجَ . . . أن
يتزوَّج . . . أو يتضرَّج بالقطن
أرجوك - سيدتي الأرضَ - أن تَسكنيني وأن تُسكنيني
صهيلَكِ
أرجوك أن تدفنيني مع الفتيات الصغيرات بين البنفسج
والبندقيةِ
أرجوك - سيدتي الأرضَ - أن تُخْصبي عُمْرِيَ المتمايلَ
بين سؤالين : كيف ؟ وأين ؟
وهذا ربيعي الطليعيُّ
هذا ربيعي النهائيُّ
في شهر آذار زوَّجت الأرض أشجارها .

- 3 -

كأني أعودُ إلى ما مضى

كأني أسيرُ أمامي

وبين البلاط وبين الرضا

أُعيد انسجامي.

أنا ولدُ الكلمات البسيطهْ

وشهيدُ الخريطهْ

أنا زهرة المشمش العائليَّهْ.

فيا أيها القابضون على طرف المستحيل

من البدء حتى الجليل

أعيدوا إليَّ يديَّ

أعيدوا إليَّ الهويَّهْ!

- ٤ -

وفي شهر آذار تأتي الظلال حريريةً والغزاةُ بدون ظلالٍ

وتأتي العصافيرُ غامضةً كاعتراف البنات

وواضحةً كالحقول

العصافيرُ ظلُّ الحقول على القلب والكلمات.

خديجةُ !

ـ أين حفيداتك الذاهبات إلى حبِّهن الجديد ؟

ـ ذهبن ليقطفن بعض الحجارة ـ

قالت خديجةُ وهي تحثُّ الندى خلفهنّ.

وفي شهر آذار يمشي التراب دماً طازجاً في الظهيرة. . .

خمسُ بنات يخبِّئنَ حقلاً من القمح تحت الضفيرة. .

يقرأن مطلع أُنشودة عن دوالي الخليل. ويكتبن

خمس رسائل :

تحيا بلادي

من الصّفْرِ حتى الجليل

ويحلمن بالقدس بعد امتحان الربيع وطرد الغزاة.

خديجةُ ! لا تغلقي الباب خلفك

لا تذهبي في السحاب

ستمطر هذا النهار

ستمطر هذا النهار رصاصاً

ستمطر هذا النهار !

وفي شهر آذار، في سنةِ الانتفاضة، قالت لنا الأرض

أسرارها الدمويَّةَ : خمسُ بنات على باب مدرسة

ابتدائيَّةٍ يقتحمن جنود المظلات. يسطع بيت
من الشعر أخضرَ. . أخضرَ. خمسُ بنات على
باب مدرسة ابتدائية ينكسرن مرايا مرايا
البنات مرايا البلاد على القلبِ. . .
في شهر آذار أحرقت الأرضُ أزهارها.

- 4 -

أنا شاهدُ المذبحهْ
وشهيدُ الخريطهْ
أنا ولدُ الكلمات البسيطهْ
رأيتُ الحصى أجنحهْ
رأيت الندى أسلحه
عندما أغلقوا باب قلبي عليّا
وأقاموا الحواجز فيّا
ومنع التجوُّل
صار قلبي حارهْ
وضلوعي حجارهْ
وأطلَّ القرنفل
وأطلَّ القرنفل

- ٥ -

وفي شهر آذار رائحةٌ للنباتات. هذا زواجُ العناصرِ.
«آذار أقسى الشهور» وأكثرُها شَبَقاً. أيُّ
سيفٍ سيعبر بين شهيقي وبين زفيري ولا يتكسَّرُ!
هذا عناقي الزراعيُّ في ذروة الحبّ. هذا انطلاقي
إلى العمر.
فاشتبْكي يا نباتاتُ واشتركي في انتفاضة جسمي، وعودة
حلمي إلى جسدي.
سوف تنفجر الأرض حين أُحقِّقُ هذا الصراخ المكبَّلَ
بالريِّ والخجل القرويّ.
وفي شهر آذار نأتي إلى هَوَس الذكريات، وتنمو علينا
النباتاتُ صاعدةً في اتجاهات كلِّ البدايات. هذا
نموُّ التداعي. أُسمّي صعودي إلى الزنزلخت التداعي
رأيتُ فتاةً على شاطىء البحر قبل ثلاثين عاماً
وقلت: أنا الموجُ، فابتعدتْ في التداعي. رأيتُ
شهيدين يستمعانِ إلى البحر: عكا تجيء مع الموج.
عكا تروح مع الموجِ. وابتعدا في التداعي.
ومالت خديجةُ نحو الندى، فاحترقتُ، خديجةُ! لا

تغلقي الباب !
إنَّ الشعوب ستدخل هذا الكتاب وتأفل شمس أريحا
بدون طقوس.
فيا وَطَنَ الأنبياء... تكاملْ !
ويا وطن الزارعين... تكامل
ويا وطن الشهداء... تكامل
ويا وطن الضائعين... تكامل
فكلُّ شِعاب الجبال امتدادٌ لهذا النشيد،
وكلُّ الأناشيد فيك امتداد لزيتونةٍ زمَّلتني.

- 5 -

مساء صغير على قرية مُهملهْ
وعينان نائمتانْ
أعود ثلاثين عاماً
وخمسَ حروب
وأشهد أن الزمانْ
يخبِّىءُ لي سنبلهْ

يغنّي المغنّي
عن النار والغرباء

وكان المساء مساء
وكان المغنّي يُغَنّي

ويستجوبونه :
لماذا تغنّي ؟
يردُّ عليهم :
لأنّي أُغَنّي

وقد فتَّشوا صدرَهُ
فلم يجدوا غير قلبهْ
وقد فتشوا قلبَهُ
فلم يجدوا غير شعبهْ

وقد فتَّشوا صوتَهُ
فلم يجدوا غير حزنهْ
وقد فتَّشوا حزنَهُ
فلم يجدوا غير سجنهْ
وقد فتَّشوا سجنَهُ

فلم يجدوا غير أنفسهم في القيود

وراء التلال
ينام المغنّي وحيداً
وفي شهر آذار
تصعد منه الظلال

- ٦ و 6 -

أنا الأملُ السهلُ والرحبُ ـ قالت لِيَ الأرضُ. والعشبُ
مثل التحيَّةِ في الفجرِ
هذا احتمال الذهاب إلى العمر خلف خديجةَ. لم يزرعوني
لكي يحصدوني
يريد الهواء الجليليُّ أن يتكلّم عني، فينعس عند خديجة
يريد الغزال الجليليُّ أن يهدم اليوم سجني، فيحرس ظل
خديجةَ وهي تميلُ على نارها
يا خديجةُ! إني رأيتُ... وصدَّقتُ رؤيايَ. تأخذني
في مداها وتأخذني في هواها. أنا العاشقُ الأبديُّ،
السجين البديهيُّ. يقتبسُ البرتقال اخضراري ويصبح
هاجسَ يافا
أنا الأرض منذ عرفتُ خديجةَ

لم يعرفوني لكي يقتلوني .
بوسع النبات الجليليّ أن يترعرعَ بين أصابع كفي ويرسم
هذا المكان الموزَّعَ بين اجتهادي وحبِّ خديجةَ
هذا احتمال الذهاب الجديد إلى العمر من شهر آذار حتى
رحيل الهواء عن الأرضِ

هذا التراب ترابي
وهذا السحاب سحابي
وهذا جبين خديجةْ

أنا العاشق الأبديُّ ـ السجين البديهيُّ
رائحةُ الأرض تُوقظني في الصباح المبكِّر. . .
قيدي الحديديُّ يوقظها في المساء المبكر
هذا احتمال الذهاب الجديد إلى العمر،
لا يسأل الذاهبون إلى العمر عن عمرهم
يسألون عن الأرض : هل نَهَضَتْ
طفلتي الأرضَ !
هل عرفوكِ لكي يذبحوكِ ؟
وهل قيَّدوكِ بأحلامنا فانحدرتِ إلى جرحنا في الشتاء ؟
وهل عرفوكِ لكي يذبحوكِ ؟

وهل قيَّدوكِ بأحلامهم فارتفعتِ إلى حلمنا في الربيعْ ؟
أنا الأرضُ. . .
يا أيها الذاهبون إلى حبة القمح في مهدها
أحرثوا جَسَدي !
أيها الذاهبون إلى جبل النار

مرّوا على جسدي
أيها الذاهبون إلى صخرة القدس
مرّوا على جسدي
أيها العابرون على جسدي
لن تمروا
أنا الأرض في جَسَدٍ
لن تمروا
أنا الأرض في صحوها
لن تمروا

أنا الأرض. يا أيها العابرون على الأرض في صحوها
لن تمروا
لن تمروا
لن تمروا !

نشيد إلى الأخضر

إنّكَ الأخضرُ. لا يشبهك الزيتونُ، لا يمشي إليكَ
الظلُّ، لا تتّسع الأرضُ لرايات صباحكْ.

ووحيدٌ في انعدام اللونِ،
تمتدُّ من اليأس إلى اليأسِ
وحيداً وغريباً كالرجاء الآسيويّ
إنّكَ الأخضرُ، من أوّل أُمٍّ حَمَّلَتْكَ الاسمَ حتى
أحدث الأسلحةِ
الأخضرُ أنت الأخضرُ الطالعُ من معركة الألوانِ
والغاباتُ ريشٌ في جناحك.

وقتُكَ القمحُ الجماعيُّ، الزفافُ الدمويّ.
إنّكَ الأخضرُ مثل الصرخة الأولى لطفلٍ يدخل العالمَ

من بابِ الخياناتِ،
ومثل الطلقة الأولى لجنديٍّ
رأى قصر الشتاء الملكيّ.
وانتظرناكَ على النرجسِ
أجراساً وقتلى
وخلقناكَ، لكي تخلقنا
ضوءاً وظلاّ.
إنّكَ الأخضرُ. لا يشبهك الزيتون، لا يمشي إليك
الظلُّ. لا تتّسع الأرضُ لرايات صباحكْ
ونشيدي لك يأتي دائماً أسود من كثرة موتي قرب نيرانِ
جراحكْ

فلتجدِّدْ أيها الأخضرُ موتي وانفجاري
إنَّ في حنجرتي عشرةَ آلاف قتيلٍ يطلبون الماءَ،
جدِّدْ أيها الأخضر صوتي وانتشاري
إنَّ في حنجرتي كفّاً تهزُّ النخلَ
من أجل فتىً يأتي نبيّا
أي: فدائيّا
وجَدِّدْ أيها الأخضر صوتي. إنَّ في حنجرتي خارطةَ

الحلمِ وأسماءَ المسيح الحيّ

جَدِّدْ أيها الأخضرُ موتي
إنَّ في جُثَّتيَ الأُخرى فصولاً وبلادْ
أيها الأخضرُ في هذا السواد السائدِ، الأخضرُ في بحث
المناديل عن النيل وعن مهر العروس
الأخضر الأخضر في كل البساتين التي أحرقها السلطانُ
والأخضرُ في كلٍّ رمادْ
لن أُسمّيكَ انتقال الرمز من حُلم إلى يومٍ
أُسمّيكَ الدمَ الطائر في هذا الزمانْ
وأُسمّيك انبعاث السنبلهْ
أيها الطائر من جُثَّتيَ الكاملة المكتملهْ
في فضاء واضح كالخبزِ. . .
يا أخضرُ ! لا يقتربُ البحرُ كثيراً من سؤالي
أيها الأخضرُ
لا يبتعد البحر كثيراً عن سؤالي
وأنا أذكرُ،
أو لا أذكرُ الحادثة الأولى ،
ولكني أرى طقس اغتيالي

وأنا العائدُ من كلٍّ اغتيالِ

مستحيلا في جسد .

فلتواصلْ أيها الأخضرُ

لونَ النار والأرض وعمرَ الشهداء

ولتحاول أيها الأخضرُ

أن تأتي من اليأس إلى اليأس

وحيداً يائساً كالأنبياء

ولتواصلْ أيها الأخضر لونك

ولتواصلْ أيها الأخضر لوني

إنَّكَ الأخضرُ. والأخضرُ لا يعطي سوى الأخضرِ،

لا يشبهنا الزيتونُ،

لا يمشي إلينا الظلُّ،

لا تتسع الأرضُ لوجهي

في صباحك !. . .

وتحمل عبء الفراشة

ستقولُ : لا . وتمزِّقُ الألفاظَ والنهرَ البطيءَ. ستلعن
الزمن الرديءَ، وتختفي في الظلّ. لا ـ للمسرح
اللغويّ. لا ـ لحدود هذا الحلم. لا ـ للمستحيلْ

تأتي إلى مُدُنٍ وتذهبُ. سوف تعطي الظلَّ أسماء
القرى. وتحذِّر الفقراء من لغةِ الصدى والأنبياء.
وسوف تذهبُ. . . سوف تذهبُ، والقصيدةُ
خلف هذا البحر والماضي. ستشرح هاجساً فيجيء
حُرّاسُ الفراغ العاجزون الساقطون من البلاغة
والطبولْ

لنشيدكَ انكسرتْ سماءُ الماء. حَطّابٌ وعاشقةٌ،
وينفتحُ الصباح على المكان. تواصل الكلماتُ

نسياناً تزوَّج ألفَ مذبحةٍ. يجيء الموتُ أبيضَ.
تهطلُ الأمطار. يتضح المسدَّسُ والقتيلْ.

سيجيئك الشهداءُ من جدران لفظتك الأخيرةِ. يجلسون
عليكَ تاجاً من دمٍ، ويتابعون زراعةَ التفّاح
خارجَ ذكرياتكَ. سوف تتعبُ... سوف تتعبُ
سوف تطردهم فلا يمضونَ. تشتمهم فلا يمضونَ
يحتلّون هذا الوقتَ. تهرب من سعادتهم إلى وقت
يسير على الشوارع والفصولْ.

ويجيئكَ الفقراءُ. لا خبزٌ لديك، ولا دعاءٌ ينقذ القمح
المهدَّدَ بالجفاف. تقول شيئاً ما عن الغضب الذي
زفَّ السنابل للسيوف. تقول شيئاً ما عن النهر
المخبَّأ في عباءات النساء القادمات من الخريف.
فيضحكون ويذهبون، ويتركون الباب مفتوحاً
لأسئلة الحقولْ.

لنشيدك اتسعت عيونُ العاشقات. نعمْ تُسَمّي خصلةَ
القمح البلادَ، وزرقةَ البحر البلادَ. نعم، تسمّي
الأرض سيَّدةً من النسيانِ. ثم تنام وحدك بين

رائحة الظلال وقلبكَ المفقود في الدرب الطويلْ.

ستقول طالبةٌ : وما نفعُ القصيدةِ ؟ شاعرٌ يستخرج
الأزهارَ والبارودَ من حرفين. والعُمّالُ مسحوقون
تحت الزهر والبارود في حربين. ما نفع القصيدة
في الظهيرة والظلال ؟ تقول شيئاً ما وتخطىء : سوف
يقترب النخيل من اجتهادي، ثم يكسرُكَ النخيلْ.

لنشيدك انتشرتْ مساحاتُ البياض وحنكةُ الجلّادِ.
تأتي دائماً كالانتحار فيطلبون الحزن أقمشةً.
وتأتي دائماً كالانفجار فيطلبون الوردَ خارطةً. ستأتي
حين تذهب، ثم تأتي حين تذهبُ، ثم يبتعد
الوصولْ.

ستكون نسراً من لهيبٍ، والبلادُ فضاؤكَ الكحليُّ.
تسأل : «هل أسأتُ إليك يا شعبي ؟» وتنكسر
السفوحُ على جناح النسر. يحترق الجناح على بخار

الأرض. تصعد، ثم تهبط، ثم تصعد، ثم تدخل
في السيولْ.

وتمر من كل البدايات احتفالاً : «هل أسأتُ إليك
يا زمني ؟» تُغَنّي الأخضرَ الممتدَّ بين يدين
يابستين : تدخل وردةً وتصيح : ما هذا الزحام ؟.
ترى دماً فتصيح : من قتل الدليلْ ؟

وتموتُ وحدَكَ. سوف تتركك البحار على شواطئها
وحيداً كالحصى. ستفرُّ منك المكتباتُ، السيِّدات،
الأغنياتُ، شوارعُ المدن، القطاراتُ، المطاراتُ،
البلاد تفرُّ من يدك التي خلقتْ بلاداً للهديلْ.

وتموت وحدك. سوف تهجرك البراكين التي كانت
تُطيع صهيلك الدامي. وتهجرك اندفاعاتُ الدمِ
الجنسيّ. والفرحُ الذي يرميك للأسماك. يهجركَ
التساؤل والتعاملُ بين أُغنية وسجّان، ويهجرك
الصهيلْ.

وسيدفنون العطر بعدك. يمنحون الوردَ قَيدكَ.

يحكمون على الندى المهجور بالإعدام بعدك.

يشعلون النار في الكلمات بعدك. يسرقون الماءَ من

أعشاب جلدك. يطردونك من مناديل الجليلّ.

وتقولُ : لا ـ للمسرح اللغويّ

لا ـ لحدود هذا الحلم

لا ـ للمستحيلْ.

الحديقة النائمة

سرقتُ يدي حين عانقها النومُ،
غطَّيتُ أحلامها،
نظرتُ إلى عسل يختفي خلف جفنين،
صلَّيتُ من أجل ساقين معجزتين،
إنحنيتُ على نبضها المتواصل،
شاهدتُ قمحاً على مرمر ونعاس،
بكت قطرة من دمي
فارتجفتُ. . .
الحديقةُ نائمةٌ في سريري.

ذهبت إلى الباب،
لم التفت نحو روحي التي واصلت نومها

سمعت رنين خطاها القديم وأجراس قلبي
ذهبت إلى الباب
ـ مفتاحها في حقيبتها
وهي نائمة كالملاك الذي مارس الحب ـ
ليل على مطر في الطريق، ولا صوت يأتي
سوى نبضها والمطر.

ذهبتُ إلى الباب،
ينفتح الباب،
أخرج.
ينغلق الباب،
يخرج ظلي ورائي.
لماذا أقول وداعاً؟
منِ الآن صرت غريباً عن الذكريات وبيتي.
هبطت السلالم،
لا صوت يأتي
سوى نبضها والمطرْ
وخطوي على دَرَجٍ نازلٍ
من يديها إلى رغبة في السفرْ.

وصلتُ إلى الشجرةْ

هنا قبلتني

هنا ضربتني صواعقُ من فضة وقرنفل.

هنا كان عالمها يبتدىء

هنا كان عالمها ينتهي.

وقفتُ ثوانيَ من زنبق وشتاء،

مشيتُ،

ترددتُ،

ثم مشيتْ،

أخذتُ خطاي وذاكرتي المالحهْ

مشيتُ معي.

لا وداع ولا شجرهْ

فقد نامت الشهوات وراء الشبابيك،

نامت جميع العلاقات،

نامت جميع الخيانات خلف الشبابيك،

نام رجال المباحث أيضاً...

وريتا تنام... تنام وتوقظ أحلامها.

في الصباح ستأخذ قبلتها،
وأيامها،
ثم تحضر لي قهوتي العربية
وقهوتها بالحليب.
وتسأل للمرة الألف عن حبِّنا
وأجيب
بأني شهيد اليدين اللتين
تعدان لي قهوتي في الصباح.

وريتا تنام... تنام وتوقظ أحلامها
- نتزوج؟
نعم.
- متى؟
حين ينمو البنفسج
على قبعات الجنود.

طويت الأزقة، مبنى البريد، مقاهي الرصيف، نوادي
الغناء، وأكشاك بيع التذاكر.
أحبك ريتا. أحبك. نامي وأرحل

بلا سبب كالطيور العنيفة أرحل
بلا سبب كالرياح الضعيفة أرحل
أحبك ريتا. أحبك. نامي
سأسأل بعد ثلاثة عشر شتاء
سأسأل :
أما زلت نائمة
أم صحوت من النوم . . .
ريتا ! أحبك ريتا
أحبك . .


حالات وفواصل

١ ـ هكذا قالت الشجرة المهملة

خارجَ الطقس،

أو داخل الغابة الواسعهْ

وَطَني.

هل تحسُّ العصافير أنّي

لها

وَطَنٌ... أو سَفَرْ؟

إنني أنتظرْ...

في خريف الغصون القصيرْ

أو ربيع الجذور الطويل

زَمَني.

هل تحسُّ الغزالة أنّي
لها
جَسَدٌ... أو ثَمَرْ؟

إنني أنتظرْ...

في المساء الذي يتنزه بين العيون
أزرقاً، أخضراً، أو ذَهَبْ
بَدَني
هل يحسُّ المحبّون أني
لهم
شرفةٌ... أو قمرْ؟
إنني أنتظر...

في الجفاف الذي يكسرُ الريح
هل يعرف الفقراء
أنني
منبع الريح؟ هل يشعرون بأني
لهم

خنجرٌ . . . أو مطرْ ؟

إنني أنتظر . . .

خارجَ الطقس ،
أو داخل الغابة الواسعهْ

كان يهملني مَنْ أُحبُّ
ولكنني
لن أُودِّع أغصاني الضائعهْ
في زحام الشجرْ

إنني أنتظر . . .

٢ ـ قطار الساعة الواحدة

رَجُلٌ وامرأةٌ يفترقانْ
ينفضان الورد عن قلبيهما ،
ينكسرانْ .
يخرج الظلُّ من الظلّ

يصيران ثلاثة :

رجلاً

وامرأةً

والوقتَ . . .

لا يأتي القطارْ

فيعودان إلى المقهى

يقولان كلاماً آخراً ،

ينسجمان

ويحبان بزوغ الفجر من أوتار جيتار

ولا يفترقان . . .

. . . وتلفتُّ أجيل الطرفَ في ساحات هذا القلب .

ناداني زقاق ورفاق يدخلون القبو والنسيان في مدريد .

لا أنسى من المرأة إلاّ وجهها أو فَرَحي . . .

أنساكِ أنساكِ وأنساكِ كثيراً

لو تأخرنا قليلاً

عن قطار الواحدهْ .

لو جلسنا ساعةً في المطعم الصينيّ،

لو مَرَّتْ طيورٌ عائدهْ.
لو قرأنا صحف الليل
لكنا
رجلاً وامرأة يلتقيان...

٣ ـ لمساء آخر

كُلُّ خوخ الأرض ينمو في جَسَدْ
وتكون الكلمهْ
وتكون الرغبة المحتدمهْ
سقط الظل عليها
لا أحدْ
لا أحدْ..

وتغني وحدها
في طريق العربات المهملهْ
كلُّ شيء عندها

لقبٌ للسنبلهْ
وتغني وحدها.

البحيراتُ كثيرهْ
وهي النهر الوحيد.
قصتي كانت قصيرهْ
وهي النهر الوحيد.
سأراها في الشتاء
عندما تقتلني
وستبكي
وستضحك
عندما تقتلني
وأراها في الشتاء.

انني أذكرُ
أو لا أذكرُ
العمر تبخَّرْ
في محطات القطاراتِ
وفي خطوتها.

كان شيئاً يشبهُ الحبَّ
هواء يتكسَّرْ
بين وجهين غريبين،
وموجاً يتحجَّرْ
بين صدرين قريبين،
ولا أذكرها . .
وتغني وحدها
لمساء آخر هذا المساء
وأنادي وردها
تذهب الأرض هباء
حين تبكي وحدها.

كلماتي كلماتْ
للشبابيك سماء
للعصافير فضاء
للخطى دربٌ وللنهر مصبٌّ
وأنا للذكريات.
كلماتي كلماتْ
وَهيَ الأولى. أنا الأوَّلُ

كنا. لم نكن

جاء الشتاء

دون أن تقتلني...

دون أن تبكي وتضحك

كلمات

كلمات.

٤ ـ يوم أحد أزرق

تجلسُ المرأةُ في أغنيتي

تغزل الصوف،

تصب الشاي،

والشباكُ مفتوحٌ على الأيامِ

والبحرُ بعيدْ...

ترتدي الأزرقَ في يوم الأحدْ،

تتسلى بالمجلّات وعادات الشعوب،

تقرأ الشعر الرومنتيكيَّ،

تستلقي على الكرسيِّ،

والشباكُ مفتوحٌ على الأيامِ ،
والبحرُ بعيدْ.

تسمع الصوت الذي لا تنتظر.
تفتح الباب،
ترى خطوة إنسان يسافر.
تغلق الباب،
ترى صورته. تسألها : هل أنْتَحِرْ ؟
تنتقي موزارت،
ترتاح مع الأرض السماويَّةِ،
والشباكُ مفتوحٌ على الأيامِ
والبحر بعيدْ.

. . . والتقينا،
ووضعتُ البحر في صحن خزف،
واختفتْ أغنيتي
أنت، لا أغنيتي
والقلبُ مفتوحٌ على الأيامِ ،
والبحر سعيدْ. . .

٥ ـ حالة واحدة لبحار كثيرة

إلتقينا قبل هذا الوقت في هذا المكانِ
ورمينا حجراً في الماء،
مرَّ السمكُ الأزرقُ
عادت موجتانِ
وتموَّجنا.
يدي تحبو على العطر الخريفيّ،
ستمشين قليلاً
وسترمين يدي للسنديانِ
قلتُ: لا يشبهكِ الموجُ
ولا عمري.
تمدَّدْتُ على كيس من الغيم
وشقَّ السمكُ الأزرقُ صدري
ونفاني في جهات الشّعْر، والموتُ دعاني
لأموت الآن بين الماء والنار
وكانت لا تراني
إن عينيها تنامان تنامان...

سأرمي عَرَقي للعشب،
لن أنسى قميصي في خلاياكِ،
ولن أنسى الثواني،
وسأعطيك انطباعاً عاطفياً...
لم تقل شيئاً
سترميني إلى الأسماك والأشواك،
عيناها تنامان تنامان...
سَبَقْنا حُلْمَنا الآتي،
سنمشي في اتجاه الرمل صيادَيْنِ مقهورين
يا سيدتي!
هل نستطيع الآن أن نرمي بجسمينا إلى القطَّةِ
يا سيدتي! نحن صديقانِ.

ونامَ السَّمَكُ الأزرقُ في الموج
وأعطتنا الأغاني
سرَّها،
فاتضح الليلُ،
أنا شاهدتُ هذا السر من قبل
ولا أرغب في العودة،

لا أرغب في العودة،
لا أطلب من قلبك غير الخفقانِ.

كيف يبقى الحلم حلماً
كيف
يبقى
الحلم
حلماً
وقديماً، شردتني نظرتان
والتقينا قبل هذا اليوم في هذا المكان!

٦ ـ الصهيل الأخير

وأصبُّ الأغنية
مثلما ينتحر النهرُ على ركبتها.
هذه كل خلايايَ
وهذا عَسَلي،
وتنام الأمنيهْ.

في دروبي الضيِّقهْ
ساحةٌ خاليةٌ،
نسرٌ مريضُ،
وردة محترقهْ
حُلُمي كان بسيطاً
واضحاً كالمشنقهْ :
أن أقول الأغنيهْ.

أين أنتِ الآن ؟
من أي جبلْ
تأخذين القمر الفضّيَّ
من أيِّ انتظارْ ؟
سيِّدي الحبَّ ! خطانا ابتعدتْ
عن بدايات الجبلْ
وجمال الانتحار
وعرفنا الأوديهْ

أسبِقُ الموت إلى قلبي
قليلاً

فتكونين السفرْ
وتكونين الهواء
أين أنتِ الآن
من أي مطر
تستردين السماء ؟
وأنا أذهب نحو الساحة المنزويهْ

هذه كل خلاياي ،
حروبي ،
سُبُلي .
هذه شهوتيَ الكبرى
وهذا عسلي ،
هذه أغنيتي الأولى
أغني دائماً
أغنية أولى ،
ولكن
لن أقول الأغنيهْ .

أعراس
(١٩٧٧)

صمم الغلاف : الفنان نبيل قدوح